"طفل المذود ونجّار الناصرة هَزَم روما." فهل يستَعيدُ أطفال الناصرة المسيرَة ذات يوم؟

حولَ كتاب:"إنقضاء الشرق" للأستاذ سمير عطا الله: قراءةٌ أخرى.

د. جورج يونان- نيويورك

يقول الأستاذ عبده وازن في "الحياة":

" كاتبٌ مثابر، ساخرُ بجدية، جادٌّ من غير ادّعاء، مثقف، ولكن من دون أن يستعرض مخزونَهُ الثقافي..."

وفي "حريق المواهب" يقولُ أنسي متحدثاً عن سمير عطا الله: "ظاهرة يتيمة، هي دُرَّةُ زمانها. نجمُ الكتاب اليوميين..."

لا أريدُ أن أُكرِّرَ ما قاله الأستاذ عبده وازن والمرحوم أنسي الحاج. فلندخل في تفاصيل الجُمَلِ والكَلِمات، وفي الشوارع والطرقات، وفي البيوت والعمارات.

كتابُهُ " إنقضاء الشرق" ليس مجموعة مقالات. إنهُ روايةٌ بعِدَّةِ فصول. وأبطالُ الرواية هُمْ هُمْ في كلِّ فصل، شخصياتُهمْ لا تتغير، وأدوارُهُم مُتَوَقَّعَة.

أناديه بإسمه المحبب لي: "ملفونو"، وهي كلمة سريانية، أي "ملفانا" بالآشورية الآرامية. والأقربُ إليها " المُعَلِّم" بالعربية. تفقد بعضَ شموليتها حين تُتَرجَمْ إلى بقية اللغات.
قلتُ له مرة: أنت شاعر الصحافيّين وصحافيُّ الشعراء.
الشعراء الحديثون، في معاناتهم من الحدث اليومي، وفي كتاباتهم، استعانوا بالأسطورة والرؤيا، في فهمِ الحدَث، واستعانوا بالتاريخ. على أنَّ هذا حركةٌ دائمة، لا سجلٌّ مائت. وفي محاولاتهم هذه، وبلغة شعرية جميلة، أوحوا للناس بالعبرة وبالحلم وبالأمل. والملفونو ينتسبُ إلى هذا الفصيل الفكري. عنده؟ هناك عناق شديدٌ بين الفكرة والكلمة والجملة لا يصل إليه إلاّ الصوفيّون في تأمّلاتهم. الحدثُ ليس وليدَ اليومِ. الملفونو يعيشُ الحدث، ويرسم الصورة، ولو قاتمة، ويستعين بالذاكرة فيستحضِرُ التاريخَ. وقد يظنُّ البعض أنه مُحْبط؛ فهو لا يعطي حلولاً، لكنه يوحي بها. وبعمله هذا يفتحُ فسحةً للقارئ فيها ليحلمُ ويأمل .
الحدثُ عنده ليست حالة منعزلة في الزمن، إنَّهُ خرير ذلك التاريخ الجاري المنبثقِ من الينابيع (فكرية، وجغرافية وبيئية).وعلى ضفاف دجلة والفرات والليطاني والأردن والنيل نَمَتْ، ترعرعت، الأحلام.

إنَّ ما يساعدُهُ على كلَ هذا ثقافةٌ واسعةٌ في الفلسفة والأدب والفن والتاريخ .ثقافتُهُ لا تمتدُّ أُفقياً وشاقولياً، بل كروياً، وبقطرٍ يزداد كلَّ يومٍ؛ فهو ليس كاتباً مثابراً فحسب، بل قارئٌ مثابر، وبِنَهَم.

"جميل أن يكون لك صديق لم تقابله من قبل." هذا ما قاله الكاتب المصري علي سالم عن الأستاذ سمير عطا الله. وفي الحقيقة، فقد شغفتني مقالاتُه في "نهار" الأربعاء خلال السنين. وقد أُخالفُه، أحياناً، في قراءة الحدث، لكنني أشاركُه في اللوعة من هذا الحدث. ثُمَّ تعرّفتُ إليه، بعد مدة، عن طريقِ صديقنا المشترك طوني صايغ؛ وهو لبنانيٌ آخر، كُرَوِيٌّ المعرفة، ننزوي معه أحياناً في بيته الكائن في إحدى ضواحي نيويورك.

***

إلى أي عالم ينتمي هذا الذي يكتب، وفي اليوم نفسه، عن أديناور وديغول، وعن عفيفة إسكندر، طفلةِ الموصل ومطربةِ العراق؟

وأي عراق؟ أهو عراق نوري السعيد؟ أم عراق عبد الكريم قاسم؟ هذا دخلَ شوارع بغداد على رأس دبّابة، والآخر سُحِلَ في شوارعها. وكلاهما أُغرم بصوتها. إنَّهُ العراقُ الذي

كان.لا عراق " داعش" كانت طفلةٌ نينوى تغني عراق حمورابي وعراق جلجامش، وعراق شعراء الطليعة في العالم العربي: "نيبور نيبور: أين الخُبزُ والماءُ\ الليلُ وافى وقد نام الأدلاّءُ؟\والركبُ سهرانُ من جوعٍ ومن عطشٍ\ والريحُ صرٌّ، وكلُّ الأفقِ أصداءُ\ بيداءُ ما في مداها ما يبينُ به\ دربٌ لنا وسماءُ الليلِ عمياءُ\ بغدادُ مُدّي لنا باباً فندخُلَهُ\ أو سامرينا بنجمٍ فيه أضواءُ" (بدر شاكر السياب: "العودة إلى جيكور"). ويظلُّ العراقُ في ضميرِ محبّيه: "الشمسُ أجملُ في بلادي من سواها ، والظلامْ\-حتى الظلام-هناكَ أجملُ، فهو يحتضِنُ العراقْ\واحسرتاه، متى أناامْ\فأحسَّ أنَّ على الوساده\من ليلِكَ الصيفيِّ طلَّاً فيه عِطرُكَ يا عراقْ؟\ بين القرى المتهيِّباتِ خطايَ والمُدُنُ الغريبه\ غنَّيتُ تربَتَكَ الحبيبه\ وحملتها فأنا المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبه." (بدر شاكر السياب: "غريبٌ على الخليج").

"الربيعُ لا يُصنعُ في الشارع، يصنعه المتنوِّرون والمشغوفون بالحرية،" ("ألم ترَ فرعونَ على نقَّالة"، ص 39) وبالفكرِ والرؤيا والابتكار.

الملفونو يُعَرِّفُ عن نفسِهِ فيقول: "أمضيتُ طفولتي في شارع أديب اسحق. والأمرُ ليس مهماً لأحد لولا أنَّ هذا الشارع

الصغيرَ في الأشرفية، كان يُسمّى "حيَّ الحوارنة"، ويقعُ على كَتِفِ "حي السريان". ثلاثُ أو أربعُ عائلاتٍ قادمات من حوران أعطت اسمها للحي. وكان أربابُها طيبين، بسطاء، يعملون في العتالة على البور. أمّا أبناؤها فذهبوا إلى الجامعات، تاركين للذكريات، وحدها، صورة الحبالِ الغليظة التي رافقت مرارة الآباء. واشتغلَ السريان الأوائلَ الأشغالَ الصعبة، وتَخَرَّجَ أبناؤهم من الجامعات أيضاً." ("شارع أديب إسحق"، ص120).

لا ينتمي الملفونو إلى حزبٍ أوعشيرة. هو صوتُ "المستورين": " أنا هويتي الأولى الإنسان." ("يا وردة من جُوّه جنينة"، ص 165-166). ولا يدعو إلى عقيدة. هو من تلك الفصيلة، من "أصحاب الزوايا" (ص 113) الذين انطلقوا "يعبرون الحدودَ والمسافات، ويعظِّمون أحجام بلدانهم الصغيرة،" يحملون "صحّارات العنب والليمون في مواسم القطاف المضنية، التي سوف يجعلونها مواسم فرحٍ وغناءٍ، ومسرحاً مُغَرِّداً." همُّهُ، في تَرحاله في أرجاء هذا المشرق المتأجج، أولئك الذين "لا يمرُّ بهم أحد، ولا يدري بهم أحد، إلا ساعة التقاط الصور، بعد وقوع الحرائق." ("حي المستورين"، ص19)؛ هؤلاء، الذين همُّهُم، في "نهاية

المطاف، الإيجار والخبز ومدرسة الأبناء." ("الثورة والخواء"، ص 85).

انطبعتْ صورتُهم في ذاكرته: "ما لبثتُ أن شاهدتُ هذه الوجوه الأليفة على الشاشة، تنزفُ منها الدماء وتعلوها صفرةُ الرعبِ. وللمرة الأولى أدركتُ أن لها أسماء. فالصورة التي في ذهني أن هؤلاء البسطاء يحملون اسماً موحَّداً هو " المستورون"، وشكلاً واحداً تقريباً، وزياً موحداً هو أيضاً زيَّ الستر". ("حي المستورين"). والمستورون في كلِّ مكان على الكرة الأرضية، يختلفون بالشكلِ والهوية، ويتشابهون في الحال. طاردوا خروشوف، وألقوا القبضَ عليه في آخر لحظة: "خلال الأزمة الكوبية، قبل نصف قرن تماماً، لاصق العالم المصير الأخير... في تلك المواجهة لم تنتصر أميركا ولا روسيا، بل البقاءُ والحياة. لَعبَ نيكيتا خروشوف لعبة الكرامة حتى اللحظة الأخيرة، ثم تذكر موتى روسيا خلال قرنين، فرمى المفتاح النووي، وذهب ينام وترك العالم أجمع يستيقظ في اليوم التالي. تُخاضُ الحروبُ من أجلِ الوصولِ إلى سلامٍ، أي إلى تسوية. لذلك يكونُ الانتصارُ الوحيدَ بالوصولِ إلى تسوية من دون مكابدة الحرب. وليس أكيداً أن الحربَ تولِّدُ تسوية وسلاماً، بل منها ما يفضي إلى

حروبٍ متوالدة." ("عند عتبة المصير"، ص 29).
وديغول أيضاً: "كان ديغول أرفع رأساً حين يركع عند قبر ابنته المعاقة آن."

***

في ترحاله يمرُّ بنا الملفونو في أرجاء العالم العربي التعيس فيصفه: "أوطانٌ للبيع، وشعوبٌ للإيجار، والنتيجة أمَّةٌ هالكة تضحكُ من جهلها الأمم." ("إصلاحاتُ محمود الثاني"، ص 84).
"ليسَ في العالم العربي وطن، لأنه ليس فيه مسكن، الذي هو أبسط حقوق وإنجازات الإنسان، الذي إنما خرج من الكهف المظلم ليبني بيتاً في أشعة الشمس وضوء القمر... وكان حدُّ الوطنِ، عند الرومان، المكان الذي فيه حقوقٌ وواجبات... تقومُ الوطنية على الألفة، إلا أننا نعيشُ في ثقافة الغزو... إن قرودَ الشمبانزي تخوضُ معارك شديدة ما بينها، ثم تتصالحُ بعد أربعين دقيقة، وتتآلفُ! ليس هذا من طباعِ البشرِ. لا مهادنات ، ولا ألفة، والمعادلة بسيطة: لا ألفة فإذن لا وطن... وهذا الهلال الخصيبُ الذي أطلقَ تسميتَهُ جيمس برستد... هو اليومَ أهلَّة اللاجئين والخائفين والمعذبين والذين لم يعودوا يأملون في شيءٍ أو في أحد. شعوبٌ

طموحُها البطّانيات، وألّا تموتَ غرقاً في الوحل." (شارع أديب إسحاق، ص120-121).

"كنا نبحثُ عن كتاب نعود به إلى البيت، فرحنا نبحثُ عن أي طريقٍ نعود بها".."هذا زمنُ اليافطات ، لا الكتب... وكنا نبحثُ عن جارٍ نُلْقي عليه التحية فصرنا نبحث عن جارٍ لا يُلقي الزجاجات الفارغة ومناديل الورق على الطريق"...

"ماذا فعل النظام العربي لكي يضمن الاستمرارَ؟ ألغى الحالة الثقافية والحضارية والفكرية. كان مفكرو مصر يلتقون في صالون العقاد أو مي زيادة، فصار المفكرون العرب يلتقون في سجون العرب." ("حياة بائع متجول"، ص 158).

لقد افتَقَدَ العربُ مصرَ، وافتقدَ المستورون العرب عبد الناصر: "تُشعِرُنا مصر بنوعٍ غامضٍ من الدفء والحماية. عندما تهون، يهونُ معها العربُ. فعندما تخرجُ عن العروبة تقلُّ أهمية العرب. وعندما تنأى، كما فعلت في كامب ديفيد، يصطرعُ العربُ في ما بينهم على مكانها. ثم يكتشفون متأخرين ،كما هي عادة أواخر القافلة، أن أحداً لا يملأ مكانها سواها. ("قرنُ الحبر"، ص 195). فـ "عندما هُزِمَتْ مصر المملوكية أمام الأتراك انتقلَ القرارُ العربي إلى

إسطنبول" ("حياة بائع متجول"، ص 159)؛ إسطنبول التي انتهت محكومة "من ثلاثة سفَّاحين، طلعت وأنور وجمال (جميعاً باشاوات)، عسكريون أغبياء، قَوَّضوا الإمبراطورية قبل أن يقتلوا رعاياها. شرَّدوا الناسَ، ثم طفقوا في بلاد الناس يعرضون خدماتهم في المهنة الوحيدة التي يعرفونها: التجويع والقتل والاضطهاد والغلظة في الخلق... واجهوا سعي الأرمن إلى الحرية بما واجهوا السوريين واللبنانيين. لم تكن النتيجة إبادة الأرمن وإعدامات دمشق وبيروت، بل كانت مقتل الثلاثة على الطرقِ في ديارِ الآخرين، وسقوط الآستانة. الغباوة كارثةٌ مزدوجة... هذا شرقُ دمويٌّ أسود ودائم الأحزان." ("الشرق الأسود القديم والجديد"، ص 117-118). وهُزِمَتْ مصرُ جمال عبد الناصر مرةً ثانية، في حروبها مع إسرائيل والغرب، فتَيَتَّمَ العربُ، وأصبحوا فريسةً مُطارَدَة ومن جميع الجهات. أمّا "الذين سطوا على المصائر في افريقيا وغيرها سطوا على كلِّ أملٍ في الحياة. الاستثناءُ الوحيدُ كان جمال عبد الناصر، الذي مات فقيراً. الباقون ماتوا أرقاماً سرية في بنوك سويسرا، أو سبائكَ ذهبٍ ، مغلَّفةً بشعارات الثورة." ("الثورة والخواء"، ص 86). "يأتونَ على ظهورِ

الفقراءِ وينسونهم عندَ أولى درجاتِ القصرِ." ("الثورة والخواء"، ص 89). وانتهت مصر مع أنور السادات رئيساً. عندما كان السادات فتى، "لم يحلم بأن يكون رئيساً بل ممثلاً في مسرح الزمالك،" ("قرنُ الحبر"، ص 196) فانتهى ممثلاً في الكينيست، وبطلاً في مسرحية كامب ديفيد، خاذلاً رفقاءه في المعركة. كان العربُ يتطلَّعون إلى مصر، إلاّ أن المشكلة كانت دائماً أن قادة مصر كان فيهم شيءٌ من الفرعونية في نظرتهم إلى العالم العربي. فـ"كلُّ ما هو خارج مصر هو دون مصر." ("قرنُ الحبر"، ص198).

***

يظلُّ المستورونَ في فكره ،فيتحسَّرُ الملفونو على أزمانهم الخيِّرَة فيقول: "كنتَ تسافرُ في المدن العربية فتقرأُ "شارع بغداد" و"ملحمة الجزائر" و"بقالة فلسطين" و"خياط الشام" و"مصبغة مصر" و"مخازن بيروت". أحلامٌ صغيرةٌ يحملُها أصحابُها إلى كلِّ مكانٍ، ويكتبونها بمهجتهم على أبواب المحالّ". ولكنه الزمنُ الرديءُ، "زمنُ اليافطات، لا الكتب." ("شارع أديب اسحق"، ص: 123). الآن، "زالت الإسكندرية "كمدينةٍ للذكريات" كما وصفها لورانس داريل،

ودُمِّرَتْ بيروت "كمدينة للمنارات" كما وصفتها إيزابل الليندي، وصار يُقالُ إن بغداد آخرُ المدن، ولا ليلةٌ فيها من ألف ليلة. وأطفأت القاهرة أضواء النهضة باسم الدستور. وها حلب ودمشق في مرارة المصير وحرق الأوطان." ("بيت لحم تبحث عن نجمة الهجرة"، ص 47). ليسَ صدفةً أنَّ تُستثنى مرابِضُ الخنوع، ويُنكَّلَ بالمُدُنِ التي حَمَلَت رايات العروبة النقيَّة برسوخِ إيمان وتأجُّجِ عنفوان. والوطنُ الذي حَمَلَ العروبة في قلبه أجيالاً وأجيالاً، "قلبُ العروبة النابض"، صلبوه على طريق الجُلجُلة، وأمَلُهُ في القيامة.

الربيعُ العربي؟ "تستحقُّ شعوبُ الأمَّةُ العربية ما هو أفضلُ بكثيرٍ من ذلك الشتاء الكالح، أو هذا الربيع الخائب، والسائب، والذي لا لون فيه إلا لونُ الحداد." ("إصلاحات محمود الثاني"، ص 82).

لم يتغيَّرْ شيء. "جماهيرُ العرب لا تجيدُ سوى الصراخ، تحملُ أكفانها، كأنما الحياة تصنعها الجثثُ، والدولُ تُبنى في الشوارع. شعوبٌ مدرَّبةٌ ومروَّضة على الابتهاج باليأس والإنجازِ بعدد الموتى." ("عدالة القهر"، ص 171).

"لم يبقَ حُلمٌ في آخر قرية عربية إلّا دُمِّرَ. لم تبقَ عائلةٌ إلاّ فُرِّقَتْ. لم يبقَ شعبٌ إلّا أُذِلَّ. لم يبقَ يُتمٌ أو ترمُّلٌ إلّا نُشِرَ.

لأن السلطان العربي بنى مجدَهُ على أن يُهابَ لا أن يُحَبَّ. أراد البقاءَ لأنَّهُ قويٌّ، لا لأنَّهُ عادلٌ. حطَّ بالاستقلال وطار بالحرية مُعَلَّقةً في مخالبه كالفريسة المرتعدة" ("أسرابٌ تعلو وأسرابٌ تهبط"، ص 60).

لأنطون سعاده مقالٌ في جريدة "الجريدة" البرازيلية-سان باولو في 1/10/1921 نبَّهَ فيهِ إلى أن العصبيات الدينية والصهيونية ستجلبُ الويلات على شعبنا. هذا، يومَ لم يكن هناك لا إسرائيل ولا مَن يحزنون. ("الآثار الكاملة"، الجزء الأول، ص 11).

"كلٌّ ما في العالم العربي اليومَ طائفيٌّ أو مذهبيٌّ أو عرقيٌّ." أمراضُنا الطائفية (يتحدّث عن لبنان) كانت بثوراً ظاهرةً نحاولُ مداواتها بالمراهم. في بقية العالم العربي كانت أوبئةً، وقد خُبِّئت بالدهن أو المداهنة، إذا شئتَ." ("ما بين الجاهلية والصرفند"، ص 160).

يقول سمير، عن لسان طبيب مصري: "السمُّ الأكبر والأكثر انتشاراً ليس كيميائياً، إنه الجنون الذي يصيب العموم ويسوّي أرواح الناس بأرواح الذباب ويجعلُ السلوك بين البشرِ مثل السلوك بين البعوض.

الإنسان يوضاس في طبيعته." ("الخفرُ الأعظم"، ص

71).
"الإنسان خُلِقَ ولم يولد بعد... التعريفُ الأصحُّ للإنسان ليس أنه حيوانٌ ناطق، بل إنه الأشد افتراساً بين أهل الغابات. لم يحصدُ الطاعونُ ولا الهواءُ الأصفرُ ولا الزلازلُ ولا البراكينُ ما حصد الإنسانُ الذي طوَّرَ قبل أي شيءٍ أدواتِ القتلِ." ("أمَّةٌ عربيةٌ فقدت وحدتها ووأَدت رسالتها"، ص 131).
"متفجراتٌ متلاحقة، واغتيالاتٌ مباحة، وبلدٌ مشرَّعٌ على خطاب الموتِ. وَعيدٌ دائمٌ، ووعدٌ دائمُ الغياب."
في القرن الحادي عشر، قال أبو حيان التوحيدي إنَّ أصناف الحياة عشرة: الأوّل حياةُ الحسّ والحركة، واثنان منها للآخرة لا مجال للتحدث عنهما. وبين هذه والحياة الأولى سبعة أصنافٍ هي: حياة العلم والبصيرة، حياة العمل والكدح (أي الممارسة التي منها تتولَّدُ الخبرة)، وحياة الخُلُقِ والسجيَّة، وحياة التديُّنِ (البحث عن جمال الله، لا التعصب) والسكينة، وحياة الكمال الأول (وهي عملية التناغم، والتضامن، والتلاؤم بين كلِّ هذه الأصناف الستة التي ذكرناها)، وحياة الظنّ والتوهم (وهي حياة القياديين، أصحاب الرؤيا والحلمِ والبصيرة النافذة والبعيدة). هذه

الأصناف السبعة إن فُقدَتْ يبقى الإنسانُ على الصنفِ الأولِ الذي هو حياةُ الحس والحركة، والذي يشترك فيه معَ الحيوان.هكذا ، ومنذ الألف الرابع قبل الميلاد خُلِقَ "أنكيدو"، رفيقُ جلجامش، من قبضة طينٍ رُمِيَت في الفلاة، " يرعى الكلأ مع الغزلان \ يرِدُ الماء مع الحيوان\ ومع البهيمة يفرحُ قلبُهُ عند الماء..." ("جلجامش"، اللوح الأوّل، العمود الثاني، الأسطر 39،40،41)، ولهذا أرسلت الآلهةُ كاهنةً لتروِّضه، وتجعلَ منه إنساناً متحضِّراً.

ماذا حلَّ بالعربِ اليومَ؟

بين شعرة معاوية وعمائمِ الحجاج سنون معدودة، وبين الحجاج وبيننا قرونٌ عديدة، العالم العربي اليومَ يعتمرُ عمائم الحجاج.

***

.

"لا يصنع العربُ سوى الهزائمِ والانتحارات. وسوف يكونُ للكواسر مهرجان كبير لأن رمادَ دمشق مأدبةٌ مزيَّنةٌ بألوان التاريخ. آخرُ حواضرِ المشرقِ، سوف تنضمُ إلى خطِّ السقوطِ العربي الطويل. المساجدُ تنفجرُ في بغداد والنجفِ، والسودانُ تنفرطُ فيما البشيرُ يلوِّحُ بعصا

المارشالية، وليبيا تنطوي على نفسها في خوفٍ وإخافة، ومصرُ، خبرونا عن مصر." ("دمشق آخر معارك العروبة"، ص 107).

"العنفُ يعتبرُ الموتَ والتشريدَ والدمارَ انتصاراً، لا هولاً ولا جرماً ولا كارثة." ("عدالة القهر"، ص 168). إنها "شرعة الأنواء لاشراع المراسي." ("عدالة القهر"، ص 170). إنَّهُ زمنُ السقوطُ العربي؟ و"للسقوط نهاية واحدة هي التحطم." ("حياة بائع متجول"، ص 156).

***

يتحدَّثُ عن سوريا، سوريا "قلب العروبة النابض... والنظام العلماني الوحيد في المنطقة" ("أمة عربية..."، ص 134). "سوريا كانت موئلاً تعددياً أكثر من لبنان، نظراً إلى سعتها وموقعها"... "سوريا ليست لبنان، وليست حتى العراق. ليست فرعاً من فروع الأمة، بل جذر أساسي في تاريخها وجغرافيتها وتكوينها. لم يستقبل بلد عربي آخر من الموجات البشرية ما ورد إلى سوريا عبر قرون. ولذا يبدو اهتزاز هذه الفسيفساء المتجذرة كارثياً على المنطقة برمتها..." ("الشرق الأوسط القديم"، ص 25).

"سورية الضعيفة أكثر تداعياً على لبنان من سوريا

الموحدة." ("عند عتبة المصير"، ص 30).
أما عن الوطن الصغير، فهو أيضاً تمرُّ عليه مصائبُ ذلك العالم العربي. وعليه توالت أزمنة الفرح وأزمنة الرداءة. يذكرنا الأستاذ سمير بعصر بيروت الذهبي وكيف بناه قلة من السيدات الجميلات، في رؤياهن حملن لبنان في قلوبهن، فيقول: "بأي محبة نتذكرُ سعاد نجَّار ومي عريضة، وبأي حنين. كان ذلك عصر البحث عن الجمال من أجلِ ذرَّة، ومن أجل تحويلِ الجمال إلى مهرجانٍ في ضوء القمر وخفرِ نجمة الصبح." (ص 157).
كان هناك "العصرُ الذهبي الذي لم يَطُلْ... (حين كان) الاستقرار السياسي يبدو كأنه دائم، والاستثمارات تتدفق، والشعراءُ قوافل، وطالبو الفرح يتهافتون. أما الصحافة نفسها فكانت في عزِّ الزهوِ. هذه العاصمة الصغيرة تسيرُ كتفاً إلى كتف مع كبرى عواصمِ العرب." ("أصحاب الزوايا، ص 114). تقول خالدة السعيد عن ذلك العصر: "عشرون سنة من مغامرة الصدق وشجاعة قول الحق، ومعارضة كلِّ سُلْطَةٍ ظالمة، ومحالفة كلِّ ذي قضية؛ عشرون سنة هي العصرُ الذهبيُّ الخاطف لدولة الحلم، لدولة تحقَّقت في لبنانِ بموازاة دولةِ السلطة السياسية والأجهزة الإدارية،

معارِضةً لها وكاشفةً لتناقضاتها المزمنة. دولةٌ، هي التي صنعت مجد لبنان الحديث، وفرضت هيبته. إنها دولة الثقافة، وركنُها القويُّ الصحافة."
وتتابع خالدة: "تمسكُ بحلم الدولة العادلة المبنية على المعرفة، وسخرُ من الأساطير. رفضُ القوقعة "الديموقراطية" التي تفتقرُ إلى الحيوية والتجدد والعدل، وتنغلقُ على المعرفة."

وطنٌ نَمَت فيه حركة الحداثة، وكانت شاملة في موضوعها وفي مجالاتها من حيث أنها امتدت إلى كل الإبداعات، من شعر وأدب ومسرح وموسيقى ونحت ورسم. وكانت إنطلاقتها من بيروت. وكانت حركة مثقفة ذات رؤيا شاملة تأسست على عدة دعائم.
"بلدٌ كثيرُ الحرية والفكر، بلدٌ مولودٌ في عصر النهضة، وعاصمةٌ تطبعُ من الكتب أكثرَ مما تطبعُ القاهرة." ولكن،" ندوةٌ وكتبٌ وحياةٌ، هذا كثيرٌ على السور العربي، ولا يُطاق... كان يجبُ كَسْرُ لبنان لأن عدواه خطيرة..."
" دولةٌ في الانعدامٍ، ووطنٌ في الريح، لقيطٌ، الكلُّ ينفي أبوته والجميعُ يريدون نهبَهُ." ("إصلاحاتُ محمود الثاني"، ص

83)
"يأتيه الآخرون من أجل طمأنينتهم، ويهاجر أهلُهُ من أجلِ سلامتهم... صعبٌ هذا الزمان. صرنا شعوباً كثيرةً في بلدانٍ كثيرةٍ، وشعوباً هاربةً في بلدانِ الآخرين." ("يأتي رؤساء الحكومات من خارج الحرب"، ص 104).
"شعبٌ موزَّع الولاءات يُعطى وطناً موزَّع الأطراف." ("لا تُعطى سوى وطنٍ واحد"، ص 177). "يخوضُ المعركة الانتخابية في الأشرفية نَجْلُ بشير الجميل وحفيدُ كميل شمعون. وفي الشمال يخوضُ المعركةَ حفيدُ سليمان فرنجية ونَجْلُ رنيه معوض. وجميعُهُمْ أبناءَ مأساةٍ دموية لا مثيل لها..." ("المشترك وضعاً والمفترق صعقاً"، ص 80). "وإذ تتقاتلُ "العائلاتُ" في ما بينها، تسيلُ دماءُ الآخرين ويبقى العرّابون في حصونهم." ("بحثاً عن الزمن الضائع"، ص 43). "لم يبقَ أيُّ ضابطٍ أدبيٍ أو أي أملٍ أو أي قضية"... و"كلُّ واحدٍ يحملُ على كتفِهِ حملَ رئيسه (أو طائفته)، لا حملَ وطنه أو أسرته أو همَّ البقاء في وطنٍ واحد." ويبقى الناس في دوّاماتهم الطائفية. وحدَهُ منطقُ: "وداوِني بالتي هي الداءُ"... "إنها عودةٌ إلى عصر الأسباط." ("المشترك وضعاً والمفترق صعقاً"، ص 78).

***

"المصالحات الحقيقية ممنوعة في لبنان، لأنها تعني الاستقرار. ويجب أن يبقى هناك دوماً صراخٌ وعتمٌ ونكد وغراب ينعق." ("يأتي رؤساء الحكومات من خارج الحرب"، ص 101).

"توصّلَ اللبنانيون إلى "الميثاق" أو شرعة التعايش التي استمرَّتْ حتى عام 1975 من دون أيِّ ضحية، لكنهم فقدوا 200 ألف قتيل، وفقدوا إنسانيتهم، وفقدوا مكانتهم في العالم، من أجلِ ميثاقٍ آخر هو اتِّفاق الطائف".

***

ما الذي جلب على هذا المشرقِ كُلَّ هذه الويلات؟ "لعنةُ الشرقِ أم فعلة الشرقيين؟" يتساءلُ الملفونو. "من هو المجرم الحقيقي: المُحَرِّض أم القاتل؟" ("خائفة على المُستَعبدات..."، ص 186). وهذا الهلال الخصيبُ الذي كان ملجأً للاجئين والمذعورين والمعذبين ما الذي أوصلَ مُدُنَهُ إلى هذا الدمار الشامل؟

في عرف الديانات الخصيبية (من الهلال الخصيب) أنَّهُ ، بعد 23 نيسان (عيد مار جرجس-خضر الياس) تُصبِحُ المزروعاتُ في مأمن من الصقيع، فالأرض تتدفَّأُ بالشمس

المشرقة كل يوم، ولكنَّ الأفاعي تشعرُ أيضاً بالدفىْ، فتخرجُ من الأرض لتُخَرِّبَ المزارع، فيأتي مار جرجس على فرسِهِ ليقضي عليها.(د.حسني هدد ود. سليم مجاعص.بعل هداد. ص: 199).

خَلَقَ الله عالم البشر وخلق مقابِلِهِ عالم الأفاعي

لقد تَحَدَّثَ الملفونو عن عالمِ المستورين، والأمل أن يتحدَّث في مقالاتِه القادمة عن عالم الأفاعي؛ الأفاعي التي أخرجتْ آدمَ من الجنَّة، والتي هاجمَتْ قاربَ "إنانا" في عودتها من السماء حاملةً شرائع الحضارة لسومر واورورك، والتي سرقتْ عشبة خلود الإنسان من جلجامش في عودته من رحلته إلى أوتنابشتيم (نوح) وإلى مساكن الآلهة؛ الأفاعي التي واجهت المسيح في المزارع فقال لهم: "يا أولاد الأفاعي، كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار..." وقال لهم: "إنّي أريد رحمةً لا ذبيحة."

"أرسلوا إلينا رجالاً من طراز لامارتين ودونرفال وريتان وشاتوبريان وموريس باريس وبيار لوتي. وكلُّ من كان أديباً عظيماً قالوا له اذهب إلى الشرق، إنها تشرقُ من هناك." ("جاء دورُ قاع البحر"، ص 112). ولكن أيضاً أرسلوا أشياء أخرى: الحقيقة أن العالم خسر أكثر من 190

مليون ضحية في الحربين العالميتين. أوَلم تكن هذه كلها حروب الغرب. وهذا العدد لا يشملُ الناسَ الذين ماتوا وشُرّدوا في حروب فلسطين، وفييتنام، وكوريا، وكامبوديا.حَدَثَتْ مذابح الأرمن والأشوريين السريان تحت أعيُنِ الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) وبتواطئهم.

من كان مسيطراً على العالم في القرن العشرين غير هذا الغرب؟

"وأطلّ القرنُ الحادي والعشرون، وأميركا في عربدةِ ضاحلٍ، واقعٍ في قبضة مجموعةٍ معروفةٍ بالمحافظينَ الجدد." والحالة في فلسطين تزدادُ سوءاً، ويُدمَّرُ العالم العربي في شرقِهِ وغربِهِ.القدسُ للبعض محجَّة وبتنوع أديانهم، ولكنها ، وللجميع، قَلْبُ وَطَنٍ ونَبَضُ أمَّة.

أعطيناهم الأديان السماوية الثلاثة، فأعطونا الفاشية والنازية والصهيونية.

أعطاهم العراق جلجامش، وقوانين حمورابي والثروة، فأعلنوه وطناً خارجاً على القانون، وسلبوا ثرواته وتراثه ودمَّروه.

أميركا-البيت الأبيض، "الذي بنتهُ سواعدِ العبيدِ الذين خُطِفوا من غربِ أفريقيا،" ما زالت في عربدة،

و"المتغطرسون يرفضون ثقافة الالتقاء لأنها غير مجدية." ("سْتِبالايزر، ص 141).
ماذا يعمل المستورون الخائفون في جبال لبنان ومزارع سوريا وفي شوارع بغداد ونينوى "وخوف الأوادم لا يكفي لرد البرابرة." ("إصلاحات محمود الثاني"، ص 81)، ونِسْلُ لوط لا يأبَهُ لنحيبِ الأطفالِ.
هذه النار من أصحاب ذلك الأتون. كان بالأحرى وبالأملِ أن تكون الحالة، بدلاً من انقضاء الشرق، انقضاضَ الشرقَ على عالم الأفاعي، ومن أجلِ المستورين والمعذبين في الأرض الذين من أجلهم جاء جلجامش منذ ستة آلاف سنة، وأنبياء المشرق. منذ أكثرَ من ألفِيَّتَيْنِ، "طفل المذودِ ونجّار الناصرة هَزَم روما." ("شارع أديب اسحق"، ص123). فهل يستَعيدُ أطفالُ الناصرة المسيرَةَ"طفل المذودِ ونجّار الناصرة هَزَم روما." ("شارع أديب اسحق"، ص123). فهل سيعودُ ذات يوم؟
ذات يوم؟